الثورة الكوبرنيكية في التربية

مقاربات بنيوية في مفهوم التربية الحديثة

علي أسعد وطفة

مجلة الطفولة العربية

مجلة تربوية فصلية محكمة

العدد 16 المجلد 4 سبتمبر 2003

صص 136-149

http://edusocio.net

الثورة الكوبرنيكية في التربية
مقاربات بنيوية في مفاهيم التربية الحديثة

أ.د. علي أسعد وطفة
جامعة الكويت - كلية التربية

شهدت الساحة الفكرية على مدى القرن العشرين ولادة منظومات فكرية مشحونة بطاقة نقدية موجهة إلى التفكير التربوي والممارسات التربوية التقليدية السائدة. وغالبا ما تتجاوز هذه المنظومات الجديدة حدود ما هو كائن إلى ما يجب أن يكون، وتنأى عن الماضي والحاضر في سعيها نحو المستقبل، وهي لا تسعى إلى شرح وتفسير الحقائق القائمة بل تعمل على بناء هذه الحقائق وتكوينها وإبداعها، إنها لا تبحث في ما هو موجود أو في أسباب وجوده بل تسعى إلى بناء تصورات جديدة عن كيفيات الوجود. وباختصار إنها تؤسس في المستوى التربوي لما يجب أن يكون من منطلق ما هو كائن باحثة في شروط الكينونة وأسباب التكوين. ومهما يكن أمر النزعات التربوية الأكثر حداثة فإنه لايمكن لنا أن نفهم طبيعة هذه الممارسات النقدية إلا من خلال وعي نقدي متقدم بطبيعة التربية الحديثة وطبيعة الثورات التربوية التي ولّدتها في سياق نمائها وتطورها وتتابع تموجاتها.

لقد ارتبط اسم التربية الحديثة بأسماء مفكرين عمالقة تفتقت عقولهم بأبدع عطاءات الفكر التربوي عبقرية وإدهاشا، ومن منا لا يقف اليوم إكباراً وإعجاباً بالفكر التربوي الإنساني الذي فاض عن عبقرية جان جاك روسو ورابليه ومونتين وبستالتوزي الذين يُشهد لهم بأنهم كانوا يمتلكون عقولاً ثورية عارمة في عطائها النقدي ضد الممارسات التقليدية لمعاصريهم [1]

لقد أحدثت التربية الحديثة عبر اندفاعات العقل التربوي منذ عصر النهضة حتى اليوم ثورات متلاحقة في المفاهيم والتصورات والفلسفات وأساليب العمل والممارسات. ويمكن القول أن هذه الثورة التربوية تجد ثوابتها في ثلاثة أقانيم مركزية:

أولا: يتمثل الأقنوم الأول في الأهمية المتعاظمة للعلوم التربوية الوليدة والعلوم النفسية الناهضة حيث أعطت هذه العلوم للمفكرين والكتاب والمنظرين دفعة علمية بعيدة المدى مكنتهم من تجاوز التقاليد التربوية بسماتها الباردة والجامدة ومن ثم العمل على تأسيس تربية جديدة على أسس علمية وعملية في الآن الواحد. وقد قدّر لعلم النفس بارهاصاته القديمة والحديثة أن يلعب دوراً كبيراً في إطلاق القدرات وفي تفجير الإمكانيات العبقرية للمفكرين والمنظرين حيث قدم لهم أساساً سيكولوجيا علميا مكنهم من الإنطلاق إلى آفاق أرحب مكن التربية أن تتحول إلى علم تطبيقي بالدرجة الأولى.

ثانياً: وتجلى الركيزة الثانية في التجليات السياسية للتربية حيث بدأت السياسة تفعّل التربية في مشاريع إصلاحية مجتمعية بعيدة المدى ومتوسطة البعاد وقصيرة الأجل. ويأخذ هذا الاتجاه السياسي مداه في الموجة الثانية للاتجاهات التربوية الجديدة ولاسيما بعد الحرب العالمية الثانية.

فعلى أثر الحرب العالمية المدمرة التي ألمت بالإنسانية، ظهرت إرادة إصلاح شاملة تعتمد تربية السلام من أجل أمن الإنسانية حيث تتجه هذه التربية إلى البحث عن نموذج لإنسان جديد أكثر قدرة على تجاوز أمراض التعصب والكراهية والعدوان. وتتجلى هذه التربية في العمل المنظم من أجل إزالة كل أشكال التعصب والعنصرية والعدوانية وكل الأسباب التي تؤدي إلى الحرب والدمار. ويمثل أصحاب هذا التيار الاتجاه الطبيعي في التربية حيث يستمدون عناصر تفكيرهم من جان جاك روسو، ومن سار على نهجه من المربين والمفكرين.

ثالثا: ويأخذ الأساس الثالث للتربية الحديثة طابعا دينيا وروحيا يجسد مختلف الطموحات الإنسانية التي يسمو بها إيمان الناس وإحساسهم الإنساني. تقول ماريا مونتسوري في هذا الخصوص "في الوقت الذي تم فيه اكتشاف قوانين نمو الطفل وتطوره تم اكتشاف الروح وحكمة الله التي يودعها في الطفل". وكتبت أيضا في هذا السياق "يجب على التربية أن تعمل على اكتشاف الحلول للمشكلات التي نواجهها في أصل القوانين الكونية للوجود. وفي هذا السياق يرى "أدولف فيريير" Adolphe Ferrière إن مهمة التربية يجب أن تكون في تحقيق سمو الروح وصفاء النفس الإنسانية. لقد بدأ المفكرون التربويون في موجة ما بعد الحداثة يؤكدون أهمية النزعة الدينية والروحية في التربية جنباً إلى جنب مع أهمية الجوانب العلمية والسياسية. فالجانب الإيماني في الناس يشكل منطلق الفعل الأخلاقي كما يشكل صمام الأمان في حركة الإنسانية نحو السمو الأخلاقي والروحي.

ذلكم هو ثالوث الركائز التربوية التي تنطلق منها التربية الحديثة. وعندما نريد في حقيقة الأمر أن ندرس القضايا التي تطرحها التربية الحديثة علينا أن نأخذ بعين الاعتبار

هذه المصادر الثلاثة التي يمكنها أن تساعد على إلقاء الضوء على سمات هذه التربية وخصائصها.

يصف كوزينيه أهم السمات والخصائص الأساسية للتربية الحديثة في مجال الطفولة على النحو التالي: إن التربية الحديثة تتمثل في رؤية جديدة للطفل قوامها فهم الطفل، ومحبته واحترامه والصبر على تربيته، والتسامح والقبول، ولاسيما في مرحلة الطفولة المبكرة. والتربية الحديثة هذه تتطلب من المربي قبول أخطاء الطفل وهفواته وإخفاقاته وتردده وخجله [2]. وتضم التربية كوكبة من فحول المفكرين نذكر بعضا من أهمهم:

الفيلسوف الأمريكي المعروف "جون ديوي" (John Dewey 1859 - 1952) زعيم النزعة البرغماتية في التربية والفلسفة.

- المربية الإيطالية المشهورة "ماريا مونتسوري" (Maria Montessori 1870 - 1952)
- المربي الفرنسي "إدوارد كلاباريد" (Edouard Claparede 1873 - 1940)
- المربي السويسري "أدولف فيريير" (Adolphe Ferrière 1879 - 1960)
- المربي الفرنسي "روجيه كوزينيه" (Roger Cousinet 1881 - 1973)
- المربي الفرنسي "سيليستان فرينيه" (Célestin Freinet 1896 - 1966)
- المربي البلجيكي "أوفيد دوكرولي" (Ovid Decroly 1871 - 1932)

ولا يقتصر رواد النزعة الحديثة في التربية على المربين الكبار بل يوجد هنا عدد من المربين في النسق الاجتماعي مثل "إميل دوركهم" (Emil Dukheim 1858-1917).

لقد شهد القرن العشرين ولادة مدرسة التحليل النفسي على يد "سيغموند فرويد" (Sigmund Freud 1856-1939) الذي أحدث ثورة في التصورات وفي القيم والمعايير السيكولوجية والتربوية كاشفاً عن المجاهيل الكبرى للنفس الإنسانية، كما أنها قدمت للبشرية إمكانيات هائلة في معرفة خصائص النفس الإنسانية، وفي تحديد مراحل النمو السيكولوجي للشخصية، وفي الكشف عن متاهات الأعماق الإنسانية. وفي دائرة هذه المدرسة يشار إلى أعلام مثل "إريك إريكسون" (Erikson, Erik 1902-1994)، الذي قدم رؤية سيكولوجية تربوية لمستويات نمو الذات عند الأطفال. ويمكن الإشارة إلى نظرية "جان لاكان Jacque Lacan" كإحدى الأبعاد المتطورة لنظرية التحليل النفسي وخاصة في تحديد بنية اللاشعور اللغوية وفي الكشف عن تخوم جديدة في أعماق النفس الإنسانية.، ويمكن الوقوف أيضاً عند نظرية "ميلاني كلاين" Melanie Klein 1882-1960 وخاصة في تأكيدها على خصوصية الأنا والطفولة وانبثاق الذات

في مرحلة الرضاعة المبكرة. ومن أعلام هذه المدرسة ينظر إلى تلامذة فرويد ولا سيما "الفرد أدلر" A.Adler (1870-1937)، "وكارل ويونغ" Jung (1875-1961)، ثم "إريك فروم" Erich Fromm (1900-1980).

وفي أحضان هذه المرحلة التاريخية تنامت الاتجاهات المعرفية في علم النفس التربوي والتعليمي حيث يشار إلى ولادة نظريات النمو المعرفي ولا سيما نظرية "جان بياجيه" Jean Piaget (1896-1980) التي كرست لدراسة مراحل النمو المعرفي والإدراكي عند الطفل .

هذه النظريات والمدارس السيكولوجية والأعمال العلمية المتواترة في مجال علم النفس استطاعت أن تحدث ثورة كوبرنيكية في عالم التربية كما استطاعت أن تبدد أوهاماً تربوية ونفسية بالغة الأهمية والخطورة. وتتمثل هذه الثورة الكوبرنيكية التي أحدثتها في تحقيق الانقلاب التاريخي وتحويل الاهتمام المركزي للتربية من عالم الراشدين إلى عالم الطفل وبنيته السيكولوجية الداخلية. وغالباً ما يجري التعبير عن ذلك بالقول أن هذه الثورة استطاعت أن تحدث انقلاباً في المفاهيم والتصورات التربوية وأن تجعل عالم الطفل الداخلي باهتماماته وميوله وطبيعته منطلق العملية التربوية وغايتها. في التربية التقليدية كانت التربية تركز على العالم الخارجي للطفل وتحاول أن تجعل منه كيانا يتشكل على منوال العالم الخارجي أي عالم الراشدين، والطفل في هذه التربية التقليدية صفحة بيضاء ينسج عليها الراشدون مقتضيات عالمهم دون أن يأخذوا بعين الاعتبار هذا الغنى الكبير الذي يتضمن عليه التكوين النفسي للأطفال.

إن النقطة الأساسية التي ينطلق منها سدنة التربية الحديثة ويجتمعون عليها هي تحقيق القطيعة مع الممارسة التربوية التقليدية في المضمون والشكل والجوهر، ونجد هذا التصور في نص يعود إلى فرينيه يقول فيه "يوجد بين مناهج التربية التقليدية ومناهجنا اختلاف جوهري"، ومن غير أن يؤخذ هذا التباين بعين الاعتبار فإن أي فهم للتربية الحديثة سينطوي على الكثير من المغالطات والأخطاء، فالمناهج التقليدية هي مناهج مدرسية وقد ولدت وجربت واعدت من أجل أن تمارس في الوسط المدرسي، وهو وسط يفرض أنماطا وأساليب ومناهج وقيم مختلفة عن الأساليب والمناهج والقيم الخاصة بالوسط غير المدرسي الذي يتمثل بوسط العمل والحياة والذي نطلق عليه الوسط الحي، ونحن نرى بأن الوسط المدرسي غير عقلاني ومتخلف وخطر وذلك بالمناسبة إلى الوسط الاجتماعي والحي والمعاصر، وعلى خلاف ذلك فإن التربية يجب أن تعمل على بناء إنسان المستقبل في الطفل وهو الإنسان القادر على إدراك حقوقه وأداء واجباته في العالم الذي يوجد فيه حيث يتوجب عليه أن يكون فاعلا ومسيطراً على عالمه هذا[3]. وفي هذا المستوى يقول جون ديوي"إذا استطاع المرء أن يتأمل بعمق في الفلسفة السائدة في الممارسة التربوية الحديثة يستطيع كما يبدو لي أن يميز مجموعة من

المبادئ المشتركة في مختلف المدارس النقدية الموجودة وذلك على الرغم من الاختلاف القائم بينهما، فكل ما يفرض من الخارج يتعارض مع مفهوم الثقافة الشخصية، فالنظام الخارجي يتعارض مع النظام الحر، والتعليم الذي يجري عبر الكتب المدرسية يتعارض مع التجربة، وهذا أيضاً يحدث في التعارض بين اكتساب العادات عبر أسلوب الترويض مع هذه التي تكتسب في نسق ارتباطها في الحاجات الإنسانية العميقة، وهنا أيضاً يجري التعارض بين مهمة التحضير للمستقبل مع مهمة الإعداد للحاضر والمستقبل في آن واحد، وأخيراً يمكن الإشارة إلى التعارض بين الأهداف التي تحددها مناهج ثابتة ستاتيكية وبين التعامل مع عالم متغير دائما[4].

وهذا النص كما هو واضح يعتمد على نسق من التعارض المنظم بين عدد من المفاهيم المتعارضة التي نوضحها في الجدول التالي:

تربية تقليدية	تربية حديثة
ثقافة تفرض من الخارج	ثقافة تعبر عن داخل الشخصية
نظام خارجي	نشاط حر
كتب مدرسية	تجربة منظمة
ترويض	تنمية وازدهار
مستقبل	حاضر
مناهج جامدة	عالم حقيقي ومتحرك

الخروج من عدمية التفكير التربوي الكلاسيكي

إن الاكتشاف الأهم في التربية الحديثة يعود إلى جان جاك روسو الأب الروحي للاتجاهات التربوية الحديثة ويتمثل هذا الاكتشاف في القول بأن الطفولة ليست مجرد مرحلة عابرة أو جسر للوصول إلى مرحلة الرشد، فالطفولة ليست تحضيراً لمرحلة الرشد وإعداد لها بل هي قيمة في ذاتها قيمة عظيمة وكبرى في حياة الإنسان، إن المبدأ الأساسي التي ينطلق منه روسو ويطلقه نداء إنسانيا في هذه المرحلة هو: دعوا الطفولة تنمو في الأطفال يسروا لها ألعابها ومسراتها ووفروا لها أجواءها المفرحة. ففي هذه المرحلة يجب أن لا نجعل الطفل يبحث عن مخرج ينطلق منه إلى عالم الرشد والمسؤولية، وألا ندفعه إلى مغادرة هذه المرحلة بسرعة كبيرة، بل وعلى خلاف ذلك كله يتوجب علينا أن نتعايش مع هذه المرحلة ونحييها ونغنيها ونعيشها بكل ما تحتاج إليه من زمن ممكن وإمكانيات متاحة، وهنا تكمن الجدة والأصالة في

مرحلة الطفولة، وهي الأصالة والجدة التي أطلق عليها كلاباريد وبدون مبالغة اسم "الثورة الكوبرنيكية في التربية Révolution copernicienne وتلك هي الفكرة المحورية التي تحكم كل أشكال التربية الجديدة والتي تميزها عن التربية التقليدية القديمة.

لقد كانت التربية التي عهد "روسو" تتمركز حول إعداد الطفل ليصبح راشداً بصورة مبكرة، إنها المرحلة التي كان فيها الطفل ينتزع انتزاعا من طفولته ويقهر قهراً على مغادرتها قبل الأوان، إذ يتوجب على الطفل منذ ميلاده حتى بلوغه أن ينضج سريعاً وعلى عجالة. وعلى خلاف ما كان سائدا في عصر روسو تنادي التربية الحديثة بالعمل على تفتح الطفولة وتحقيق ازدهارها في الأطفال، فعلى الطفولة أن تكتمل وتنضج على نار الزمن الهادئة. ولأننا نقر بوجود راشد كامل في صورة رجل فإنه يجب علينا أيضاً أن نعترف بوجود طفولة ناضجة للأطفال. ونحن عندما نسمح للطفل في أن يكون طفلاً كما يجب عندما نستطيع أن نبحث في مسألة انتقال الطفل إلى مرحلة الرشد [5].

وفيما بعد "روسو" اكتشفت التربية الحديثة القيمة الإنسانية والوظيفية للطفل، لقد كان روسو في حقيقة الأمر أول من اهتم وشغل بمسألة الطفولة وهو أول من قدم إجابات إبداعية حول هذه المسألة حتى أن التربية الحالية ليست سوي تعبيراً عن أفكار مطورة ومتعددة لجان جاك روسو. لقد كان روسو يعتقد أن الإنسان الذي لم يعش مرحلة طفولة حقيقية هو إنسان خطر ومعرض للخطر في آن واحد. فالصعوبات والخبرات السيئة للطفل قد تضعه في طريق الهاوية والانحراف كما أن الطفولة الهادئة والسعيدة قد تؤدي إلى بناء الإنسان القادر على مواجهة التحدي والتغلب على الصعاب. لقد أولى روسو لطبيعة الطفل أهمية خاصة وعالجها على نحو لا يفتقر إلى العبقرية فالطفولة مرحلة غنية بإيحاءاتها وخصوصياتها وتضاريسها وهو في هذا السياق يبرز بعض السمات والخصوصيات التي تتفرد بها مرحلة الطفولة ومنها:

- أن الطفل يمتلك عقلا خاصا ويتميز بطبيعة خاصة تختلف عن طبيعة الراشدين. فالطفل ليس رشاداً صغيراً وإنما هو صغير الراشد وهذا الصغير يتميز بوضعية متفردة تميزه عن الراشدين.
- يحتاج الطفل إلى توازن من نوع خاص.
- يحتاج إلى نضج من نوع طفولي.
- سعادة الأطفال والطفولة هي النقطة المركزية في تربية الأطفال.
- طبيعة الطفل خيرة وما من شر أصيل في النفس الإنسانية. فالطفل طاهر وبريء وكل شيء يخرج من يد الباري خير يفسد بين يدي الإنسان. فالطفل لا يمتلك نزعة شريرة بل

يمتلك كل صنوف الخير والعطاء وهو يصور الطفولة على أنها بعد من أبعاد الوجود الإنساني ونموذج إنساني فريد بأبعاده وتطلعاته [6].

الثورة الكوبرنيكية في التربية Révolution Copernicienne

يرى كلاباريد صاحب مقولة الثورة الكوبرنيكية في التربية أن التغير الانقلابي المذهل الذي أحدثته النظريات الحديثة في التربية، يشبه التحول الثوري في علم الفلك الذي حدث مع اكتشاف كوبرنيكوس لمركزية الشمس حيث تبين نظرية كوبرنيكوس بوضوح أن الأرض هي التي تدور حول الشمس وليست الشمس هي التي تدور حول الأرض كما كان سائداً في علم الفلك القديم عند "أرسطو وأقليدس".

لقد كان التلميذ في التربية التقليدية يدور حول المنهج، فجاءت التربية الحديثة لتحدث انقلاباً بدأت فيه المناهج وعلى خلاف ما هو معهود تدور حول التلميذ، وأصبح الطفل هو محور المجموعة التربوية بعد أن كان يدور في هامشها.

وهذا يعني كما يرى "جون ديوي" أن الطفل هو نقطة البداية وهو المركز كما أنه الهدف في العملية التربوية في التربية الحديثة. إن الثورة التربوية هذه استطاعت أن تؤدي إلى انقلاب حقيقي في المعايير والعلاقات التربوية السائدة، فالتربية ليست رهن بالمعارف العلمية لعلم نفس الطفل فحسب بل هي رهان موقف جديد من الطفل يرتكز على فهم الطفل وحبه (كما فعل بستالوتزي) وعلى احترام الطفل وتحقيق حاجاته والصبر عليه، إنه الموقف الذي يؤكد على قبول الطفل كما هو عليه وقبول الطفولة كقيمة إنسانية أو مرحلة ضرورية في عملية نمو الطفل وازدهاره، وفوق ذلك كله فإن التربية الحديثة هذه تؤكد أهمية التسامح وقبول أخطاء الطفل واخفاقاته واندفاعاته على مبدأ الإيمان الراسخ بأن الطفل هو طفل مهما يصدر منه ومهما يكن من أفعاله، وعلى مبدأ بأن الطفل بقدر ما يكون طفلا كاملا يستطيع أن يكون في المستقبل رجلاً كاملا. وهنا يجب التأكيد أيضاً على أن الطفل يجب أن يعيش السعادة وفي أجواء الإحساس بالبهجة والحرية ويجب أن يكون سعيداً حتى ولو كان ذلك على حساب الأهداف التربوية التي نسعى إليها، وأن مهمتنا كراشدين وكمربين هي أن نبقي الطفل قدر الإمكان وبقدر ما نستطيع في حالة الطفولة والبراءة التي تزدهر في مرحلة الطفولة. ويجب علينا نحن أيضاً أن ننعم ببراءة هؤلاء الأطفال ونتشبع بعطاءاتها، وذلك بدلا من العمل على تشكيل الأطفال من خلال نظرتنا للكون والحياة. يجب هنا أن نؤمن بأن الطفل يمتلك في ذاته كل شروط التربية الحقيقية ولا سيما هذا النشاط العارم الذي لا يتوقف أبداً وهو الذي يشكل فعالية تربوية حقّة تؤكد نماءه ونضجه وتقدمه أيضاً، وهذا يعني أن مساعدتنا للطفل ليست ضرورية بل توجيهنا له هو الضروري في العملية التربوية برمتها[7].

مفاهيمنا عن الأطفال:

تحدد تصوراتنا عن الطفل والطفولة مفهومنا عن التربية، وهذا يعني أنه يجب على المربي أن ينطلق من الصورة الحقيقية بين إمكانيات الطفل وبواعث حركته واندفاعاته وبين المهمات المدرسية التي توكل إليه وهذا يعني مجموعة من النقاط التي يجب أن تؤخذ بعين الاعتبار وهي:

- أهمية العلاقة بين عالم الطفل وعالم المدرسة.

- أهمية العلاقة بين المعرفة وحاجات الطفل.

- مبدأ الحاجات التربوية حيث يؤكد كلاباريد على هذا المبدأ عند الطفل وينادي بتوليد قابلية الطفل وشهيته إلى المعرفة لأن الطفل يجب أن ينطلق نحو المعرفة كما ينطلق نحو الطعام.

- مركزية الاهتمام في العملية التربوية. وهنا يؤكد جون ديوي يتحدث على مبدأ الاهتمام الحقيقي عند الطفل، ويرى أن الطفل يمتلك على حاجات أصيلة في نفسه وذاته، وفي الوقت الذي تتماهى فيه الذات مع فكرة أو موضوع ما فإن الاهتمام يلغي المسافة التي تفصل بين وعي الأشياء والنشاط الذي يرتبط بهذا الوعي، وعلى خلاف ذلك فإن الجهد يحدث القطيعة بين الآنا والفعل والميل إلى التنفيذ [8].

- مبدأ النشاط والعمل: وهنا يبدع "سيلستان فرينيه" Celestin Freinet مفهوم العمل واللعب Travail Jeu، ويرى أن النشاط الذي يتحرك في أعماق الإنسان يتحول إلى وظيفة، ومن ثم فإن ممارسة هذا النشاط تعطي نوعا من الرضى والإحساس بالثقة.

وفي هذا الصدد يؤكد "كوزينيه" Cousinet بأن حاجات الطفل تحد مسار حياته، ففي إطار التربية التقليدية نجد تحديداً ضيقاً مفتعلاً للوسط التربوي، وهذا الوسط يفرض على الطفل أن يحقق تكيفه وفقاً لعناصره. وعلى خلاف ذلك فإن التربية الحديثة تنطلق من حاجات الطفل وميوله واهتماماته بوصفها العناصر الأساسية لبيئة الطفل ومن ثم تعمل على تنظيم هذه البيئة لتحقق إشباعاً متوازنا لمختلف عناصر هذه البيئة وهذا يعني أن التربية الحديثة تكيف البيئة لحاجات الطفل على خلاف ما يحدث في التربية التقليدية.

ومع أهمية ما يطرح حول قضية الحاجات ومفهوم الحاجات المركزية عند الطفل يجب على المرء أن يتساءل عن إمكانية إخضاع هذه المفاهيم وهذه التصورات للرؤية النقدية، ألا يمكن لنا على سبيل المثال أن نخلط بين الحاجات الثقافية والحاجات الطبيعية عند الطفل؟ ألا يمكن لهذه التربية أن تقود إلى تحويل التربية إلى نوع من الأفعال التي تهتدي بقوانين البيولوجيا؟

وهنا يمكن لنا أن نبحث القيمة الكبرى التي تعطي للطفولة مقابل هذه التي تعطى لمرحلة الرشد كما نرى عند كوزينيه الذي يؤكد بأن الراشدين هم الذين يحققون مكاسب عندما يعطون للطفل الفرصة الأكبر في أن يكون طفلاً وأن يبقى زمنا أكبر في مرحلة البراءة.

المدرسة الفعالة:

لقد تبلورت مفاهيم وتصورات التربية الحديثة في ما يطلق عليه بالمدرسة الفعالة (L'école active) وقد ظهرت هذه المدرسة في نهاية الستينيات من القرن العشرين ولاسيما في ثنايا الخطاب التربوي الحداثي الذي حقق انتشاراً واسعا. وفي أصل فكرة المدرسة الفعالة توجد فكرة ممارسة الحرية والاستقلال L'exercice de l'autonomie وتتضمن هذه المدرسة منظومة من الأفكار التربوية أهمها:

- يكون العمل بالتعاقد وليس بالفرض والإكراه.

- توليد إحساس الحرية والمسؤولية عند الطفل في كل مستويات نشاطته وعمله (نصوص حرة، بريد، مدرس، صحف، مناقشات، أبحاث).

- يوضع الطفل أو التلميذ في مواجهة صعوبات وتحديات حقيقية من نوع تربوي.

- يكون شعار هذه المدرسة المبادرة والحرية والمسؤولية وهي الثلاثية المختلفة في المفاهيم المركزية لهذه المدرسة. ففي المدرسة الفعالة، كل شيء حتى المناهج نفسها يجب أن تنبع وبصورة عفوية من المبادرات العفوية للتلاميذ ومن اقتراحاتهم الموجهة والمحددة من قبل المعلم، ويتم ذلك بصورة تلقائية وعفوية [9].

هذا ويميز دانيل هاملين بين تصورين أساسين للطفل الفعال هما:

- عنفوان الإرادة: تحت اندفاعات الإرادة يتحرك الطفل ويتصرف ويعمل على توجيه ذاته بذاته ويكون فعله طوعيا دون إكراه.

- عنفوان الحركة: حيث يعرف الطفل باللهو والنشاط المتنوع وتتمركز حركته الحرة حول الاهتمامات الفاعلة المتجددة دون إكراه.

المدرسة المفتوحة

يعد مفهوم المدرسة المفتوحة L'école ouvert من أهم المفاهيم الأساسية للتربية الحديثة وذلك لأن الثورة الكوبرنيكية في التربية استطاعات أن تحطم الأفعال وتكسر القيود التي تكبل المدرسة التقليدية. وينطوي مفهوم المدرسة المفتوحة على معادلة من الأفكار أهمها:

- تحقيق أجل المصالحة بين الثقافة والمدرسة والحياة.

- المدرسة يجب أن تفيض بمختلف النشاطات والفعاليات التي تشكل لحظات أساسية في حياة الطفل.

- تكون اللغة في المدرسة لغة واقعية وتكون مفرداتها حية تعبر عن التواصل الأصيل والحقيقي.

- تكون المعرفة معرفة تجريبية ناجمة عن علاقة التلميذ بالتجربة الحية.

- تكون مجموعة الأطفال جماعة حقيقية أو مجتمعا حقيقياً بكل ما ينطوي عليه من ممارسات وفعاليات.

صورة المعلم في التربية الحديثة:

إن فعل المربي يجب ألا يمارس على الطفل بصورة مباشرة بل يجب أن يتجه نحو الوسط الذي يعيش فيه الطفل. فالمربي يعمل على تنظيم الوسط بطريقة يستطيع معها الطفل أن يعبر عن ذاته وأن يتعلم بطريقة نشطة وفعالة، وذلك لأن المعرفة التي ترتبط بحاجات الطفل هي التي تسمح بإعادة تنظيم الوسط وربطه بإمكانيات جديدة لنمو الطفل وازدهاره. وينطلق هذا التنظيم من مبدأ احترام الطفل وعفويته، وهذا يعني أنه يجب تنظيم الوسط بطريقة تسمح للطفل بالتقدم بما يتوافق مع إمكانياته الخاصة. والسؤال هنا هل يعني أن وظيفة المعلم قد انتهت ولم تعد هناك حاجة إليه؟ أو هل يعني ذلك أن هذه الوظائف قد تغيرت كليا وأصبحت من معطيات الوسط المدرسي ذاته؟ تلك هي القضية التي شغلت المفكر الفرنسي "سيندر" Synders في كتابه التربية التقدمية [10]. لقد شكلت التربية التي فعّلتها المربية ماريا مونتسوري تعد نموذجا من نماذج التربية الحديثة. وفي هذه التربية تعلمنا منتسوري كيف تتحول سلطة العلم من التأثير المباشر على التلميذ إلى التأثير في معطيات الوسط الذي يحيط بالتلميذ.

خلاصة:

يمكن تحديد التربية الحديثة بصورة استراتيجية بمعيار تعارضها مع التربية التقليدية وذلك وفقاً لأنساق محددة من المفاهيم التي تتصل بالجوانب التالية:

١- غاية التربية.

٢- المناهج.

٣- مفهوم الطفولة.

٤- مفهوم المناهج.
٥- مفهوم المدرسة.
٦- دور المعلم.
٧- النظام.
٨- العملية التربوية.

ويمكن لنا أن نقدم صورة مقارنة للتربية الحديثة والتربية التقليدية بأسلوب منهجي في الجدول التالي:

مقارنة بنيوية بين التربية التقليدية والتربية الحديثة [11].

	التربية التقليدية	التربية الحديثة
المفاهيم الأساسية	- تربية تقليدية - تربية مغلقة وشكلية - تربية آلية وميكانيكية - تربية موسوعية - تعليم برغماتي - تعليم يتمركز حول المدرسة هذه المفاهيم ظهرت بين ١٩١٧-١٩٢٠	- تربية حديثة - مدرسة فعالة - تربية وظيفية - مدرسة متجددة - تربية عضوية - تربية منفتحة وغير شكلية - مدرسة جديدة - تربية تتمركز حول الطفل ظهر مفهوم المدرسة الجديدة في بريطانيا عام ١٨٩٩ وفي فرنسا عام ١٨٩٩.
غاية التربية	- تحول الثقافة ونقلها إلى الأجيال الصاعدة. - تشكيل الطفل وقولبته وفق قوالب محددة. - قيم موضوعية (الحقيقة، الجمال، الخير).	- تحويل الثقافة ونقلها عبر القوى الحية للطفل. - تطوير القوى الصادرة عن العمق الداخلي للطفل. - قيم ذاتية وشخصية.
مناهج	- التعليم من الخارج إلى الداخل. - النظام الثقافي الخارجي بشكل نقطه الإنطلاق والبداية حيث يتم تقطيعه وتقسيمه في أجزاء يتم تمثيله.	- تعليم الطفل من الداخل للخارج. - ذات الطفل واهتماماته بشكل منطلق التربية والتعليم. - تربية تقوم على مبدأ الاهتمام.

تابع : مقارنة بنيوية بين التربية التقليدية والتربية الحديثة

	التربية التقليدية	التربية الحديثة
مناهج	- تربية تقوم على الجهد. - مدرسة سلبية تسعى إلى تقليد النماذج. - تربية موسوعة.	- مدرسة فعالة. - تربية وظيفية.
مفهوم الطفل	- الطفل صفحة بيضاء. - قيمة الطفولة نسبية قياسا إلى قيمة الراشد. - يجب التأثير على الطفل مباشرة. - الطفل يتحرك ويدور حول مناهج محددة خارجياً.	- الطفل له حاجاته واهتماماته وطاقاته الخلاقة. - الطفل طاقة حيوية خلاقة. - الطفولة قيمة بحد ذاتها. - الطفل هو الذي يتصرف. - هناك نمو متكامل للطفل. - المناهج تدور حول الطفل.
المدرسة	- وسط صفي مختلف - التأكيد على الانفعالات. - التأكيد على الحدود والفاصل. - حول المشكلات الصعبة. - التحضير لمستقبل الطفل.	- وسط طبيعي واجتماعي تجري فيه الحياة على نحو عفوي. - عفوية الأطفال. - أهمية الحاضر. - تجعل الطفل يعيش مشكلاته الخاصة ويعمل على حلها.
دور المعلم	- المعلم يوجه الطفل بشكل مباشر. - المعلم محور العملية التربوية. - المعلم نشط وهو نموذج يجب على الطفل أن يحتذي به.	- المعلم مجرد ناصح يوقظ الطفل على حب المعرفة وهو مصدر المعرفة. - الطفل هو مركز العملية التربوية. - الطفل يمارس ويفعل وينشط.
النظام	- نظام تسلطي يعتمد العقاب والثواب. - نظام خارجي يعمل على قهر إرادة الطفل.	- نظام يعتمد على اهتمامات الطفل ويراعيها. - نظام ينطلق من داخل الطفل وليس من خارجه.
نموذج التربية	- تربية بالموضوعات مهمتنا نقل الثقافة. - تربية من نسق ميكانيكي.	- تربية ذاتية تسعى إلى تنمية شخصية الطفل. - تربية عفوية.

ومع أهمية ما ذكرناه من مفاهيم حول دلالة التربية الحديثة فإن التربية الحديثة لا يمكنها أن تحدد بطريقة بسيطة عفوية عبر مقارنتها بالتربية التقليدية فهي تمثل حركة إنسانية عميقة ومعقدة استطاعت أن تحكم ممارسات القرن العشرين، وهي حركة لا تنفصل عن أفكار المجتمعات الإنسانية وتطلعاتها كما يقول "فيليب راينود" Philippe Raynaud: "إن التربية الحديثة هي ترجمة مرئية لمنطق الديمقراطية الحديثة لأنها تتمركز حول حاجات الفرد واهتماماته [12].

وفي النهاية نقول بأن التربية الحديثة ترتبط بمبدأ الثورة الكوبرنيكية ولا سيما فيما يتعلق بمهماتها في داخل المدرسة وخارجها: فبدلا من التركيز على أهمية المتطلبات المجردة والخارجية للمجتمع أو للمدرسة في عملية التربية يجرى التركيز في التربية الحديثة على حاجات الأطفال واهتماماتهم من أجل بناء وسط تربوي يمكنهم من النجاح وتحقيق الازدهار والتكامل الداخلي لشخصياتهم [13].

ومهما يكن أمر التفسيرات التي تقدم في هذا الخصوص فإن عقائد التربية الحديثة (كما هو حال مختلف العقائد التربوية) يجب أن تناقش بعمق في مختلف أبعادها وتحليلاتها التربوية والعلمية والسياسية والاجتماعية والفلسفية.

الهوامش

1 -E. Durkheim, Nature et méthode de la pédagogie, En éducation et sociologie, Edition Alcan, Paris, 1911, pp 85-86.

2 -E. Durkheim, Nature et méthode de la pédagogie, En éducation et sociologie, Edition Alcan, Paris, 1911, pp 85-86.

3 -Célestin Freinet, Méthode naturelle et méthodes traditionnelles, In La Méthode naturelle, Marabout, Paris, P.28.

4 -J.Dewey, expérience et éducation, Armand colin, Paris, 1968, P.60.

5 -Roger Cousinet, L'éducation nouvelle, Newchâtel, Delachaux et Niestlé, Paris, 1968, P. 27-28.

6 -Regarde: Georges Snyders, La Pédagogie aux 17 eme et 18 eme siecle, Paris, PUF, 1970.

7 -Roger Cousinet, L'éducation nouvelle, Neuchâtel, Delachaux et Niestlé, Paris, 1968, P.22-23.

8 -Regarde: J. Dewey, l'intérét et l'effort, In l'école et l'enfant, Viesté, Paris, 1912, Paris Nies.

9 -Regarde: Daniel Hmeline, l'école active, textes fondamentaux, PUF, Paris, 1965.

10 -Regarde: Georges Snyders, La pédagogie progressiste, PUF, Paris, 1971.

11 -Clermont Gauthier, la pédagogie, théorie et pratique de l'antiquité a nos jour, Montreal, Gaeton Morin, 1996.

12 -Phillippe Rayanoud, l'école et la démocratie, Le Dedat, n 64, Narub-auril. Paris, 1991, P 42.

13 -Phillippe-Raynaud, et Poul Thiboud, La fin de l'école républicaine, Calmann-levy, Paris, 1990, P 58.

مجلة الطفولة العربية

مجلة فصلية تصدرها

الجمعية الكويتية لتقدم الطفولة العربية